مراجعة كتاب

–اسم الكتاب: "**Creative Thinking From Islamic Perspective**"

–تأليف: د.جمال أحمد بشير بادي، ود. مصطفى تاج الدين•

–طبعة: مركز البحوث في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2004م.

مراجعة وتقديم: عبد الرزاق عبد الله حاش*

تمهيد:

انطلقت حياة الإنسان على وجه الأرض منذ أمد بعيد مليئة بالمخاطر ومحفوفة بالغموض، لكن الإنسان منذ عصر مبكر بدأ يتطلع إلى معرفة جوانبها الخفية، واكتشاف نواميسها الطبيعية والاجتماعية، ليسهل له بعد ذلك التحكم فيها وتسخيرها لما يصلح لحياته، مما جعل الإنسان الأول ومسيرته مع الطبيعة والحياة تتراوح ما بين نصر وهزيمة وفشل ونجاح، ثم ما بين تراجع مرحلي وارتقاء زمني في سلم الرقي. لكننا وبعد تأمل يسير في مسيرة المجتمعات البشرية الأولى، ندرك أن الأداة التي وظّفها الإنسان في معالجة القضايا الاجتماعية، والطبيعية، والفكرية، كانت "التفكير أو التفكر"، وهي المادة التي إن حرمت منها أمّة من الناس، فإن حياتها تتحول إلى قحط أبدي، وتصبح الأعداد البشرية بدونها وكأنها أكوام من الخشب أو همل بلا إرادة –إن صح التعبير. ولأهمية التفكير والتفكر للحياة البشرية، أشار العلماء إلى أن الرصيد الحقيقي لأمّة مّا، ليست البنايات العالية والعمارات الفاخرة فحسب، بل الأفكار والمبادئ الفكرية، وأنماط التفكير المشكلة لأذهان الأفراد، والمتداولة في أوساطها أيضاً. بل إن بقاء الإنسان على الأرض مشروط بالتفكير والتفكر، مما يعني أن الأمة التي تصاب بجدب الأفكار التي تنقذها من المآزق الاجتماعية والكوارث الطبيعية، فإن وجودها مهدد بالزوال وأيامها مهددة بالفناء. ولهذه الأهمية كان التفكر مجال واسع للدراسة والبحث فيه، وتطوير أساليبه، وتحديد أنماطه، ومعرفة عوائقه لدى العلماء المعاصرين والقدماء بما فيهم المسلمين وغيرهم.

ولقد تناولت أقلام المفكرين المسلمين وخاصة المعاصرين منهم، التفكير ومجالاته، إلا أن الذي يجعل هذا الكتاب فريداً من نوعه –حسب تقديري– هو شموله النظرة الإسلامية والغربية للموضوع وخاصة الجوانب التاريخية والحديثة أو الأصالة والمعاصرة منها، من جانب، ثم من جانب آخر، جمع المادة المتعلقة بالإشكالية

• د.جمال أحمد بادي، أستاذ مشارك في كلية معارف الوحي والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. ود. مصطفى تاج الدين، أستاذ مساعد في كلية معارف الوحي والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

* ماجستير في أصول الدين ومقارنة الأديان، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وطالب دكتوراه في الجامعة نفسها.

ومقارنتها بطريقة تتصف بالموضوعية والأصالة في آن واحد، بأسلوب يظهر منه الاعتزاز بالقيم الروحية والفكرية للهوية الإسلامية مع اعتراف موضوعي بالآخر.

أما فيما يتعلق بالمنهج والسؤال المركزي للكتاب؛ فإن الكاتبين لم يذكرا السؤال المركزي لكتابهما، لكن القارئ لمقدمة الكتاب، يدرك أن الإشكالية الأساسية التي يسعى الكاتبان لعلاجها هنا هي: ماهية التفكير الإبداعي وأنماطه ومهاراته ومجالاته وعلاقته بالتصور واللغة والحس، ثم ماهية النظرة الإسلامية والغربية تجاه التفكير الإبداعي قديماً وحديثاً. أما المنهج فإن الكاتبين اتبعا منهجاً تحليلياً مقارناً في تقديم مادة الكتاب للقارئ، وهو منهج يناسب الموضوع –حسب تقديري– لكون الكتاب مقرراً أكاديمياً، وبحثاً علمياً جديداً في حقل الفكر الإسلامي المعاصر–حسب علمي– بما يجعل الكتاب ملائماً للطالب المبتدئ وللباحث المتعمق في آن واحد، لتناوله المفاهيم المفتاحية والأولية للتفكير الإبداعي، ولتغطيته جوانب مهمة عميقة للبحوث العلمية حوله.

يتكون الكتاب من صفحات عددها سبع وعشرون بعد المائتين، وفصول سبعة بعد مقدمة بيّن فيها الكاتبان دواعي تأليفهما للكتاب، وفيه خاتمة ذكرا فيها أهم نقاط الاتفاق والاختلاف بين الفكر الإسلامي والغربي فيما يتعلق بـ"التفكير الإبداعي". وإذا استعرضنا المادة التي تضمنها الكتاب نجد الكاتبين تناولا، المصطلحات المفتاحية والمفاهيم المدخلية والمفردات المتعلقة بالموضوع في مجال الأدبيات الإسلامية، مشيرين في مستهل كلامهم إلى أن الإنسان في الكوكب الأرضي لم يخلق للعبث دون هدف في المنظور الإسلامي؛ بل بالعكس فإنه مخلوق ذو حياة بأبعاد مختلفة، وذات وظائف نبيلة وإمكانات متعددة. فالإنسان في المنظور الإسلامي مباين للمخلوقات الأخرى بصفات ومظاهر شتّى أولها وأهمها: صفة "التفكر" الملازمة لكيانه، والتي بدونها لا يملك القيام بالمسئولية الإستخلافية التي حملها الله على عاتقه.

وعلى مستوى المفهوم فقد استعرض الكاتبان تعاريف قواميس اللغة للتفكر، ومحّصوا الفرق المحتمل بين "التفكر" و "التفكير". وبما أنه لم يكن هناك فرق في تعاريف القدماء بين الكلمتين، فإن علماء النفس المعاصرين أمثال مالك بدري، أدركوا وجود تباين ملحوظ بينهما، حيث أن التفكر:عملية وصل بين التصورات والمفاهيم المأخوذة والمستنبطة من هذه الحياة بالآخرة، وبين الخالق ومخلوقاته. وهذه العملية هي ما يعرف في الأدبيات الإسلامية "بالاعتبار". أما "التفكير" فإنه تلك العملية التي يستخدمها الناس لحل المشاكل اليومية. فالتفكر أعمق من التفكير، حيث إن الأول يعبُر بتصوراته ومفاهيمه من الدنيا إلى الآخرة، ومن المخلوقات إلى خالقها، وهو ما يصطلح عليه باصطلاح "العبرة والاعتبار". أما الأخير فعادة ما يكون محصوراً في حل المشاكل اليومية في الدنيا وكثيراً ما يكون بعيداً عن الانفعال والعاطفة. ومن هنا –كما يرى الكاتبان– فإن التفكر أوسع مجالاً وأعمق أثراً من التفكير؛ بتجاوز الأول المظاهر المادية المحسوسة إلى ما وراء الطبيعة من عالم

الآخرة من جهة، ثم استنفار الأول جميع طاقات الإنسان المعرفية الإحساسية والروحية، بعد الاستفادة من الخبرات السابقة عن الإدراك الحسي للمخلوقات والتصورات والخيالات للوجود.

ومن الناحية العملية، فإن التفكير يمرّ بثلاث مراحل، بدءاً بالمرحلة التي تأتي عن طريق الإدراك الحسي المباشر بالنظر والسمع واللمس، أو عن طريق التحليل والمعارف العقلية، دون ارتباط الأخير بالنواحي العاطفية والانفعالية. ثم ينتقل الإنسان من هذه المعرفة المباشرة، إلى مرحلة التذوق عن طريق النظر في جمال التنسيق وعظمة الصنع وبهاء النظر عبر أحاسيس مرهفة ومشاعر متدفقة، وتنتهي هذه المعرفة إلى معرفة الخالق المبدع وهو الله سبحانه وتعالى. فالنظر في المخلوقات لا يعدو أن يكون مرحلة بدائية يشترك فيها المؤمن والكافر، كذلك المرحلة الثانية –أي مرحلة التذوق لدقة الصنع وجمال التنسيق– قد تهتز لها القلوب بغض النظر عن إيمانها أو كفرها، لكن المعرفة الثالثة التي تأتي بربط هذا التذوق، بمجال الكون ودقة صنعته بمبدعه جل وعلا، هي النعمة الكبرى التي لا تكون إلا لمؤمن. وعلى كل يشير الكاتبان إلى أن الناس مختلفون في مستويات التفكر، بناء على عمقهم الإيماني وقدراتهم في التركيز على شي معين، ثم على قدراتهم العاطفية والعقلية، بجانب مؤثرات البيئة الثقافية التي يتربى فيها الإنسان، كما أن المعارف الموجودة أو المعهودة لدى المفكر لها دورها في التفكر.

وفي الاستخدامات القرآنية –أشار الكاتبان، أن فعل "فكر" –الذي هو أصل التفكر– واشتقاقاته، ورد في القرآن ثمانية عشر مرة في عدة سور من القرآن الكريم. ويلاحظ من هذا الإستخدام القرآني للكلمة أمور منها: أنها استخدمت في القرآن الكريم بصيغة:"فعل" وليس بصيغة:"اسم" أي كعملية جارية واضحة المعالم، فاعلها الإنسان، بدلاً من كونها مصطلحاً غامضاً. وقد استخدمت في موضوع واحدٍ على صيغة "فعل ماض، بصيغة مفرد" وما عدا ذلك جاءت على صيغة، "مضارع، جمع" مما يعني إشارة واضحة إلى إستمرارية عملية التفكر وجريانها في الحياة، ثم إشارة إلى أهمية التفكير الجمعي في الإسلام ومدى قيمة الجهد الشوري والتعاوني فيه.

وتناول الكاتبان المفاهيم والمصطلحات المرادفة لكلمة "التفكر" في القرآن الكريم، مثل: "النَّظَر" الذي يعني في المنظور القرآني التفكر في مخلوقات الله وملكوته، ثم "التبصر" الذي يعني الوضوح في القول والسلوك والتفكير في طريقة الحياة كلها، ثم "التَّدبر" الذي يعني التعمق والتفَّهم وقراءة ما وراء الحروف المنطوق بها، عبر تحليل وتدقيق المفاهيم المطروحة، وبنظرة استيعابية إلى الجوانب المختلفة، والتفاصيل المتعلقة بالموضوع المطروح، ومنها "التَّفقه" والتَّفهم للموضوعات العلمية والمجالات المعرفية، ومنها "التَّذكر" الذي يعني استحضار معنى مَّا في الذهن أو القلب، وهذه العملية بحاجة إلى تفكير مركّز وعميق، وقد يكون معنى التذكر: الاتعاظ بشيء مّا أو بامر مّا، ومنها " الاعتبار" الذي يعني النظر إلى مآلات الأمور وكيفية انتهائها، ثم "التعقل" أي نظر الأمور بمنظار عقلي ومنطقي بنوعيه الرشدي والإدراكي، حيث يدرك العقل أشياء معينة ليس من الضروري في كل

إنسان أن يسترشد بها، حيث من الممكن أن يكون عند المرء عقل لا يفقه به أو قلب لا يعقل به، لكن المقصود هنا هي تلك العملية الإدراكية التي تفرق بين الحق والباطل، وترفض التناقض في الأمور العقلية، ومنها "التوسم" الذي يعني التفرس والتأمل في الحياة. وما إلى ذلك من المصطلحات القرآنية المرادفة لمعاني التفكر، والتي في مجموعها ترمز إلى تلك الحركة الذهنية والإدراكية للوجود ككل.

وهناك سؤال يطرح نفسه حول منزلة التفكير في الفكر الإسلامي وحكمه، وقد أشار الكاتبان إلى أن الفكر في الإسلام عبادة إذا استوفى شروطه وهي النية والإخلاص، حتى إن "عباس العقاد" أحد المفكرين المسلمين المعاصرين، يرى أن التفكر فريضة إسلامية مطلوبة من كل مسلم عاقل كما بيّن في أحد كتبه، في حين اعتبر البعض من المفكرين الإسلاميين، أن التفكير ضرورة حيوية، حيث أن الآيات القرآنية التي تحث على التفكر، تندرج في الأمر بالنظر إلى الدلائل الكونية للخالق سبحانه وتعالى ودقة تنظيمه للكون وما فيه، ثم الحثّ على التفكر والتدبر، ثم إثارة النظر والفكر من خلال القصص القرآنية؛ ليستخلص الإنسان منها عبرة وعظة في مسيرة حياته، ثم يعلمنا القرآن الكريم كيفية الوقوف على بدايات الأشياء وضرورة ملاحظة الجذور حتى لا يزيغ البصر في التأمل، ثم يدلنا القرآن على ضرورة الالتزام بمنهجية وموضوعية معينة، تقوم على ترتيب الأشياء وما نفكر فيه ثم ترشيد عملية التفكير نفسها. ويكون التفكير ضرورياً لا للتأمل المجرد في الكون وبديع صنعة الله فيه، بل لتطبيق المبادئ الدينية والقيم الاجتماعية في أرض الواقع في أشكال وأساليب عملية، كمبدأ الشورى ووحدة الأمة، وإغاثة الملهوف والمحتاج، وفهم القوانين والنواميس أو السنن الكونية التي يوجه القرآن الكريم أنظارنا إليها.

وبما أن التفكر ضرورة حيوية، فإنه من الضروري إزالة العوائق التي تحول دون التفكر، مثل الجهل، والإعراض عن الحقيقة بعد معرفتها، ثم التقليد والتعصب الأعمى، ثم إتباع الهوى والتكبر، ثم النفاق والحسد والجحود وتكذيب الحق، وما إلى ذلك مما ينافي الموضوعية، وتحول دون المرء والتفكير المنتج المطلوب. ولقد شجّع القرآن الكريم الإنسان على التفكير الإبداعي في الحياة، والسلوك الموضوعي في حل المشكلات والمعضلات الإنسانية، من خلال التأمل وإمعان النظر في جوانب الحياة المختلفة، ومن خلال الاعتبار والنظر في مآلات الأمور، مع الالتزام بحسن التقدير والتفهم للأمور، والانفتاح الذهني والفكري والليونة، وما إلى ذلك من المواصفات الحميدة للتفكير، بعيداً عن الذاتية والتحامل، والتعصب والجمود وغير ذلك من الصور التي تعيق التفكير الإبداعي أو الموضوعي.

ثم إن الدراسات المعاصرة للقرآن الكريم –كما أشار الكاتبان– مثل الدراسات التي قام بها مالك بن نبي وغيره، توصلت إلى أن من بين القضايا الأساسية للهدي القرآني، تحرير الإنسان من التبعية الفكرية والتقليد الأعمى للأجداد، تحريراً يجعله خليفة في الأرض.

أمّا ما يتعلق بالمقياس أو المعيار الذي يحدد مدى قبول التفكير الإبداعي ورفضه، فأشار الكاتبان إلى ضرورة أن يتوافق الإبداع مع المنظور الإسلامي للوجود والكون، وأن يتصف بصفتي: "الإتقان والإحسان"، ومما ينتفع به الإنسان في حياته، أمّا إبداع شيء يتناقض مع المنظور الإسلامي للوجود، أو شيء عديم النفع والجدوى كالأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، فعندئذ يتحول الإبداع من واجب مأمور به إلى محرم محظور.

فالاجتهاد مصطلح إسلامي يطلق على استنباط الأحكام من النصوص المقدسة (القرآن والسنة)، وإنزالها في الواقع الاجتماعي في كل عصر وزمان، ويمثل مجالاً واسعاً للفكر الإبداعي في المنظور الإسلامي–في رأي الكاتبين– كما توحي لنا وقائع العصر النبوي، وبالذات حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي سأله الرسول ﷺ، بعد القرآن والسنة، ماذا يفعل في حل المشاكل؟ فقال: "أجتهد ولا آلو" وهنا يأتي دور الإبداع في الاجتهاد متمثلا في فهم النص أولاً، ثم استيعاب عمق الإشكالية المطروحة وتشعباتها، ثم إصدار الحكم أو الحل المناسب لها. ومن الضروري في هذا الأمر أن يستحضر المفكر أو المبدع القواعد العامة والكلية في الشريعة الإسلامية، مثل؛ قاعدة درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولا يستبدل المفسدة بمثلها، وتقدم المصلحة العامة على الخاصة، وأن الضرورة تبيح المحظورات، كما أن الضرورات تقدر بقدرها، وما إلى ذلك من القواعد المتداولة في الفقه الإسلامي.

وبما أن أنماط التفكير وأشكاله تنوعت وتعددت من خلال الدراسات النفسية الحديثة، خاصة في علم النفس المعرفي في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، والتي أوصلها البعض إلى "أربعين نمط أو نوع" مثل التفكير النقدي، والعاطفي، والموضوعي، والإيجابي، والمرئي، والقياسي والمجازي، فلا عجب أن نجد تلك الأنماط في الاستخدامات القرآنية، وغيرها من وسائل التوضيح والتفهيم، ومن وسائل التعقل والإدراك، من باب تصريف الآيات وتقليب الكلام لعلهم يفقهون. ومن هذه الأنماط الفكرية القرآنية، "نمط التساؤل" أو النمط التساؤلي، أي طرح الأسئلة للفحص عن ماهية الشيء والكشف عن حقيقته. واستعمل القرآن الكريم هذا النوع من النمط بكثرة، إلى درجة أن الأسئلة التي جاءت في القرآن الكريم وصلت إلى ألف وزيادة، بأشكال عديدة وطرق مختلفة، لترسيخ الإيمان في قلب المؤمن وتقويته، وتقبيح الكفر والتقليد الأعمى لأجداد الكفر والنفاق من جهة، وإثارة الشكوك حول المعتقدات الفاسدة وأماكن الضعف والنقص فيهم، ثم لفت أنظار الناس إلى أحوال الأمم السابقة لقصد العبرة والعظة. ثم "النمط الموضوعي"، الذي يتم بمطالبة الخصم بإحضار الأدلة لما يقوله وتوفير الحجج لكلامه، ثم عن طريق النظر في أدلة المخاصم؛ من حيث مدى مناسبتها للإشكالية، ومدى قوّتها وتناسقها الداخلي والموضوعي، بنظرة بعيدة عن الذاتية والهوى النفسي والرغبات الشخصية، ومجردة عن المقررات الفكرية السابقة للمرء، مع الابتعاد عن الظن والتخمين في القضايا المصيرية، المتعلقة بالإنسان وحياته بشكل جذري، كالعقيدة ومصدر الحياة البشرية ومصيرها. و"التفكير

الإيجابي"، ومرتكزه الدعوة إلى عدم القنوط من رحمة الله تعالى، والثقة الجازمة بهداية الله لعباده والتوكل عليه، والإيمان بالقضاء والقدر في مفهومه الصحيح الذي يعني بذل الجهد في المعيشة كأنك تعيش أبداً، والعمل للآخرة كأنك تموت غداً، وترك السلبية في الحياة والاتصاف بالإيجابية في كل الحالات، مع الابتعاد عن الاعتقاد بالخرافة الفكرية والعقدية، والشعوذات التي لا تسمن ولا تغني من جوع. ويلي ذلك "التفكير الافتراضي"، ويعني أن تفترض جدلاً (بمفهومه الإيجابي) في صحة أحد الأمرين، مع العلم أو الجزم بأن الحقيقة في أحدهما، لا من باب التنازل عن مبادئك وتصديقاتك، بل من باب الإنصاف مع الخصم ووضعه في موقف باحث عن الحقيقة، وإعطائه فرصة يراجع فيها حساباته الذهنية وقناعاته الشخصية.حيث ترد في القرآن الكريم آيات مثل: "أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدّي إلا أن يهدى" أو: "وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين" إن هذه الآيات وغيرها تشير إلى ذلك النمط الافتراضي -إن صح التعبير- الذي يجعل الآخر في موضع إنصاف وبحث، لا موقف هجوم ودفاع؛ لكي يتسنى للمرء أن يفهم أننا هنا للبحث عن الحقيقة بعيدين عن الذاتية والتقليد.

ويأتي بعده "نمط التفكير المنطقي العقلي"، والذي يعني التفكير الإنساني الذي لا يقبل التناقض ويدعو إلى الانسجام في الأفهام، وهذا ما استخدمه القرآن الكريم مثل قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"، وفي قوله تعالى: "ما اتّخذ الله من ولد وما معه من إلهٍ إذاً لذهب كل إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض"، ويليه "التفكير التأملي"، الذي يعني إمعان النظر في الأمر، من باب التدبر والتذكر لأصحاب العقول وذوي النهى من أهل العلم، للكشف عن قدرة الله تعالى في الخلق والنظم التي تحكمه، ثم يأتي من بعده "نمط التفكير المرئي"، هو ذلك التفكير الذي يقصد منه التأثير على الأذهان من باب التصورات الذهنية والمرئية، ومن ذلك تناول الآيات القرآنية للسّاعة وما يرافقها من أهوال يوم القيامة وأحوال أهل الجنة والنار من جهة، ومن جهة أخرى تصوير أحوال الذين كفروا وأشركوا، كالذي يقلب يديه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، أو كالذي خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، وغير ذلك من الصور المرئية المذكورة في القرآن الكريم. ثم "نمط التفكير المجازي والقياسي"، ويتم استخدام التفكير المجازي في القرآن الكريم عن طريق ضرب الأمثال لإبراز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، ولكشف الحقائق وللترغيب في شيء مّا، وللتنكير والزجر عن المكروه، وللمدح، علماً بأن الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع. ثم أن التفكير القياسي لا يقل أهمية عن سابقه، حيث يشبّه الله تعالى أموراً معنوية بأخرى حسيّة مرئية، كتشبيهه أعمال الكافرين بسراب في قيعان يظنه الظمآن من بعيد ماءً جارياً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، أو تشبيه أعمالهم ببيت العنكبوت، أو كظلمات بعضها فوق بعض. ثم يليه "التفكير العاطفي"، حيث يخاطب الله تعالى عباده بتعابير مليئة بالعطف والحنان والرأفة والرحمة، بأن لا يقنطوا من رحمة الله تعالى، وأنه يغفر الذنوب جميعاً، وأنه لغفّار لمن تاب، وما شابه ذلك. ثم يليه "التفكير الإدراكي

أو الشعور أو الإحساسي"، حيث يقوم القرآن الكريم بمعالجة الإدراك لبعض القيم والأخلاقيات، مثل أن الخيرية ليست محصورة في ظاهر الشيء، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم. ثم يأتي "التفكير التصوري أو المفهومي"، حيث يصحّح القرآن الكريم المفاهيم والتصورات الشائعة، إما بتوسيع المفهوم والتصور بإعادة بناءه وتعريفه، مثل توسيع مصطلح العبادة من مفهومه المحصور بشعائر دينية معينة إلى مفهوم يشمل كل عمل يحبه الله تعالى. أو عن طريق الربط بين مصطلحين ليكون لهما مفهوماً جديداً، كربط مفهوم الحبل بالله تعالى ليصير "حبل الله" تعالى الذي هو القرآن، وبين لباس وتقوى ليصير "لباس التقوى" وغير ذلك من إعطاء المصطلح معنىً آخر ومفهوماً مغايراً لمفهومه الأول. وقد جاء هذا التفكير في مواضع كثيرة من السنة النبوية مثل هذه الحالات، مثل تغيير مصطلح الإفلاس من المفلس المتعارف عليه الذي ليس له درهم ولا دينار، إلى من يأتي يوم القيامة وقد صلى وصام وحجّ، ولكنه قد شتم هذا وسبّ هذا، فيؤخذ من أعماله إليهم فيصير مفلساً من الأعمال الصالحة، وتغيير مصطلح الصُّرَعة من الشدّة الجسدية إلى القوة المعنوية النفسية. ثم يأتي في الأخير التفكير الوجداني الإلهامي، ثم التفكير العلمي حيث يشجّع "التفكير العلمي"، في مواضع عدة إما عن طريق الحديث عن أمور عليمة طبيعية وحقائق تاريخية، أو عن طريق مطالبة الخصم بأن يأتي بدليل وبرهان لما يقوله ويعتقده، ولذلك تجد في القرآن الكريم تعابير مثل "قل هاتوا برهانكم" وغير ذلك.

أما فيما يتعلق بالاجتهاد ودوره في إنشاء التفكير الإبداعي، يشير الكاتبان إلى أهمية الاجتهاد في إنشاء الفكر الإبداعي وعلاقته به، باعتبار الاجتهاد استفراغ الطاقة الذهنية والعقلية بعد تأمل عميق لإستنباط الرأي أو الحل المناسب للإشكال المطروح، أو لفهم النّص والواقع، أو إنزال المفهوم من النص على الواقع، لحظة غياب نص صريح في أمر مّا. أو أنه عبارة عن بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة وجهد، والاجتهاد التام أن يبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه العجز عن مزيد طلب. فهنا يأتي دور الاجتهاد في توليد الإبداع وذلك باستفراغ الطاقات الكامنة في الإنسان لحل المشاكل اليومية أو القضايا المطروحة. وبعد استقراء واسع لتعريفات العلماء لمفهوم الاجتهاد توصل الكاتبان إلى أن مفهوم "الاجتهاد" يمكن مقارنته بمفهوم "الإبداع" حيث أن كليهما ينطلق من بذل المجهود وتفريغ الطاقة لابتكار معنى معين أو إدراكه، وينتهيان بجعل المبدع أو المجتهد واعياً للحدث بغية إصلاحه أو تطويره، أو جعله أكثر قابلية للاستعمال والتطبيق من ذي قبل. ويشير الكاتبان إلى أن الإسلام شجّع الاجتهاد وبذل الطّاقة واستفراغ الجهد في الحياة، سواءً على مستواها المادي أم المعنوي، من خلال معالجة القضايا اليومية. ومن هنا كانت عملية الاجتهاد مألوفة لدى الجميع في الحضارة الإسلامية. ووجود فنون مختلفة في الثقافة الإسلامية من فقه وأصوله، وعلم حديث ورواة، ومناهج متعددة للتفسير، وعلوم رياضية، وفلكية، واجتماعية،

دليل ساطع على ذلك. وإيضاحاً لدور الإجتهاد والإبداع في الفكر الإسلامي، تناول الكاتبان إسهامات علماء المسلمين في تنمية المعارف والعلوم في التاريخ البشري، وذلك موضوع الفصل التالي.

أما السؤال المتعلق فيما إذا كانت هناك إسهامات لعلماء المسلمين في تطوير العلوم والمعارف في تاريخ البشرية، فيشير الكاتبان إلى أن المسلمين منذ بداية تاريخهم ظهرت فيهم النزعة العلمية وتطوير الحياة وتحسينها، وذلك تجاوباً مع المطالب القرآنية التي حثتهم مراراً وتكراراً على كشف السنن الكونية والنواميس الطبيعية الكامنة في العالم المحيط بهم، وهذا ما ينفي الزعم بأن النظرة العلمية للأشياء- كما يشير إليه الكاتبان- دخيلة في الفكر الإسلام، كما أنها لم تكن وليد ترف حضاري عند علماء المسلمين، بل كان التعلّم مكمّلا للإيمان والعقيدة، حيث لا عقيدة بغير علم ولا يقبل إيمان المقلّد. وبجانب ذلك يشير الكاتبان إلى ما يلي:

أولاً: أن الإسلام جعل التعلم فريضة إسلامية على كل مسلم؛ لتحرير الإنسان من الوهم والظن والعشوائية؛ ليعيش حراً طليقاً بعلمه.

ثانياً: أن القرآن الكريم يخاطب العقل والتجربة الإنسانية، مما يشير إلى أنه ولأول مرة تكون المعارف الإنسانية، مبنية على التجربة وعلى النظريات العقلية، بجانب الوحي السماوي، في المنظور الإسلامي.

ثالثاً: أن الإسلام ينظر للدنيا بأنها مكملة للآخرة، فلا زهد في الدنيا ولا إعراض عنها، ولا إنغماس في المادية المطلقة، مما جعل المعارف الإسلامية تتمتع بصفات الجدية والأصالة والتوازن كما أقرها علماء الغرب المعاصرين.

واستعرض الكاتبان رواد العلوم في الحضارة الإسلامية مثل: جابر بن حيان (ت-813م) الذي اتفقت كلمة الباحثين على حجيته في علم الكيمياء، والكندي (ت-867م) الذي تعمق في الفلسفة وعلم الرياضيات والفلك، والخوارزمي (ت-850م) أبو "علم الجبر" في الرياضيات والحساب، والرازي (ت-854م) الطبيب والفيلسوف والكيميائي، والفارابي (ت- 872م تقريباً) المعروف بطول باعه في المنطق وعلم الإحصاء والفلسفة، والبيروني (ت-1048م) الذي قال عنه العالم الألماني (سخاو): البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ... وفعلاً كان للبيروني صولات وجولات في العلوم الطبيعية الرياضية والفلكية خاصة، بل اعتبره البعض أنه مؤسس علم دراسة الأديان أو علم الدين المقارن، وذلك من خلال دراسته الموضوعية المتوازنة لأديان الهند القديمة، التي بدونه ما أمكن لنا معرفتها وذلك في كتابه"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة بالعقل"، وابن سينا (ت-1037م) صاحب نظريات الطب والفلسفة والدراسات النفسية، وابن يونس (ت-1009م) من مشاهير الفلكيين والرياضيين الذي اخترع الرقاص أو بندول الساعة، وابن الهيثم (ت-1039م) الذي اخترع علم المناظر والبصريات وعلم الضوء الحديث، وغيرهم من العلماء الذين تركوا ترسانة علمية وخزانة معرفية للبشرية. وانطلاقاً من النظرة الإسلامية التي تعطي للعلم والمعرفة منزلة عالية، فإن

المسلمين تقدموا بإسهامات متنوعة في مجال المعرفة الإنسانية في المنطق، والرياضيات والجبر والهندسة الشكلية، وعلم الفلك والموسيقى وغير ذلك من جوانب العلوم الطبيعية، والمعارف الإنسانية، الأمر الذي يفسر توظيف المسلمين للتفكير الإبداعي والعلمي، الذي أسهم في تنمية المعرفة الإنسانية عبر التاريخ.

أما فيما يتعلق بالتفكير الإبداعي في المنظور الغربي، فقد قام الكاتبان بتفحّص وقراءة ما جادت به القريحة الغربية في مجال التفكير، والعوامل المؤثرة في عملية التفكير الموضوعي ومقارباتها ومداخلها، ثم تقييم عام لأبحاث الإبداع في المنظور الغربي؛ وقد خلص الكاتبان إلى أنه رغم الادعاء بأن التفكير الإبداعي جهد حديث، فإن الاستطلاع الدقيق للكتابات التاريخية يوحي بغير ذلك، حيث إن البحث في التفكير الإبداعي كان مجال دراسة وبحث حتى في العصور الأولى من الحياة البشرية، مع أن الرأي الأخير يحمل في طياته اتجاهات عدة يشير بعضها إلى أن التفكير الإبداعي إلهام سماوي، ويرى البعض الآخر، بأنه مكتسب، كما أشار أفلاطون في كتاباته إلى طرق إكتسابه وأهميته للإنسان، مع أن معظم كتاباته كانت تتمحور حول العقل الفلسفي والجدل المنطقي بجانب إهماله التفكير الإبداعي وعدّه من الأمور الثانوية، ومن هنا كان تدريس التفكير الموضوعي ضمن علم الاستدلال الفلسفي (Philosophical reasoning and rationality)، إلى أن أصبح مادة مستقلة لذاتها ضمن علم النفسي المعرفي والإدراكي في العصر الحديث.

وتتراوح التعريفات الغربية للتفكير الإبداعي من كونها: مجموعة قدرات، ومهارات ودوافع وأخلاقيات متضايفة متزامنة، إلى كونها طريقة إخراج الأفكار بطريقة مبتكرة عير معهودة لإيجاد حل للمشكلات ولتجديد الحياة بشكل مستمر. ويظهر من التعريفات الغربية المعاصرة للتفكير الإبداعي بأنه عملية شخصية، فيها نوع من الاستمرارية والجديّة. ومن العوامل المؤثرة في عملية الإبداع عندهم: المرونة، والانفتاح، والطلاقة، والأصالة، والمخاطرة، وحب الاستطلاع، بجانب القدرات، والدافعية والمهارات، حيث إن القدرة تحتاج إلى المهارات التي تفيدها في معرفة استراتيجيات الإبداع وكيفية استخدامها، ثم الدافع الذي يعني الالتزام الشخصي والحماس فيما يتعلق بالوقت والطاقة والجهد المبذول. وتتراوح مقارباتهم وطرق تدريسهم للإبداعي من خلال المنظور النفعي، والمؤسسات التقليدية، وعلم النفس السيكولوجي، وعن طريق علم النفس المعرفي الحديث.

وفيما يتعلق بعلاقة اللغة والتصور والتفكر فقد تناول الكاتبان علاقة اللغة بالتفكير، من خلال الأعصاب الدماغية، التي هي الوعاء الذي تنطوي فيه الأفكار وتصدر منه اللغة، وبما أننا لا نستطيع التخاطب والاتصال المباشر من دماغ إلى دماغ، فإنه يمكن أن نعرف ما في أذهاننا من أفكار ومبادئ عبر التعبير اللغوي، الذي هو أحد أدوات الاتصال بين الناس واحد من أدوات التخاطب والتفاهم بينهم. فاللغة لا تعدو أن تكون أداة وصل بين الموضوع وبين ما في ذهن الإنسان، إذ لا تفكير دون لغة ولا لغة دون تفكير، ومن هنا فإن علاقتهما علاقة تكامل وتبادل، حيث إننا نفكر لنتكلم ونتكلم لنفكر، ثم نفكر حين نتكلم. ومن خلال المنظور القرآني فإن اللغة والتفكّر هبة معطاة للإنسان من الله تعالى، بل إن اختلاف ألسنة

البشر –لا اللغات حسب التعبير القرآني– آية تدل على وجود الله تعالى. ويشير الكاتبان إلى أن هناك فرقاً بين اللسان واللغة، فاللغة شيء يشترك فيه جميع البشر نظراً لأدوات التفكير الكونية التي تشترك فيها الإنسانية، بينما اللسان ليس إلا ثمرة جهد جماعي في تنظيم اللغة، ومن هنا فإن اللغة شيء تشترك فيه البشرية، وإن اختلفت الإنسانية على المستوى التعبيري أو اللساني لهذه اللغة. كما تناول الكاتبان العلاقة بين الحقيقة والتعبير عنها عبر اللسان إذ تنقسم اللغة إلى لغة طبيعية هي المتداولة بين المجتمعات البشرية في ظروفهم العادية، ولغة صناعية مصطنعة معروفة في المنطق الرياضي ولغات البرمجة الحديثة. أما فيما يتعلق بعلاقة التصور والإدراك بالتفكر واللغة فإنها علاقة محورية، إذ أن المبادئ والمفاهيم وعالم المادة ليست إلا رموز، قد يكون بعضها معاني مجردة وبعضها مدركة بالحسّ.

وعلاقة الحقيقة بالحسّ، وبالتصور والإدراك، كانت محل نقاش بين الفلاسفة والعلماء عبر العصور؛ حيث رأى البعض على سبيل المثال أن الحقيقة ليست إلا الوجود المادي الذي يمكن فهمه والإحاطة به موضوعياً، وليست وظيفة التعلم إلا انطباعات منقوشة على الذهن، ورأى البعض الآخر بأن الحقيقة روحانية بحتة وليست المادة إلا خيالات خادعة، تمثل حواجز منيعة دون الفهم للحقيقة الروحانية. لكن المنهج القرآني يختلف عن هذا وذاك؛ حيث يدعوا إلى اعتبار الحسّ أداة تسجيل، والعقل أداة تمحيص، والوحي أداة ترشيد وتوجيه، ليصل الإنسان بعد ذلك إلى الحقيقة الكاملة المتوازنة الأطراف والأبعاد.

وقد بحث الكاتبان طرق الجدال والمحاجّة والقياس، وطرق استنباط المعاني من المنطوق من خلال البرهنة، شارحين طرق المحاججة وأشكال الجدل الإستنباطي والإستقرائي المقبولة منها والمرفوضة، وحدود كل منهما وأنواعه. ثم انتقلا إلى الكلام عن المغالطات الجدلية العقلية وأنواعها، حيث إن الحجة المعتبرة تتكون من مقدمات مشهورة، يعتقد المخاطب صحة مضمونها اعتقاداً لا يشعر الذهن بأن نقيضه ممكن، بينما صور المغالطات من حيث المنشأ والنتيجة متعددة، منها مغالطات لفظية وغيرها، وقد تكون المغالطة ناشئة عن طريق الإخلال بأحد ضوابط القياس، أو نقص التمايز والتجانس أو انعدام الحدّ المشترك بينهما، وقد تكون المغالطة ناشئة عن المصادرة على المطلوب، كما يمكن أن تكون ناشئة عن التعميم الفاسد للأحكام الخاصّة على الحالات كلها.

وفي الخاتمة: أشار الكاتبان إلى خلاصات ختامية تتعلق بالتفكير الإبداعي عموماً، ثم ما هي مواضع الاتفاق والاختلاف بين الفكر الإسلامي والغربي منها: حيادية التفكير الإبداعي وموضوعيته، وتجاوزه للحدود الثقافية والدينية. كونه مهارة إنسانية تدفع الإنسان إلى التحسين والتجديد والاختراع، حيث إن كل إنسان يمكن أن يتصف بها بغض النظر عن خلفيته الدينية والثقافية، مع أن العوامل الداخلية والخارجية تلعب دوراً هاماً في تكوين شخصية الإنسان. كما أن المسلمين المعاصرين ظنوا أن التفكير الإبداعي عملية تاريخية، حيث ينظرون دائماً إلى التاريخ للتدليل على إبداعية الفكر الإسلامي، دون الاهتمام بإمكانية أن يكون الفكر

الإسلامي فكراً مبدعاً في العصر الراهن. وأن معظم المشتغلين في التفكير الإبداعي يعتقدون أن بذل الجهد أو الاجتهاد ضروري وأساسي لعملية الإبداع. وإن أفكار (Edward de Bono) في التفكير الإبداعي، هي في حقيقة أمرها موافقة للنظرة الإسلامية للإبداع، التي ركزت على محورية النية في كل الأعمال صحة وفساداً رداً وقبولاً. كما يلعب التصور دوراً هاماً في عملية التفكير الإبداعي، بحيث أن التصور يكون عائقاً أمام الإبداع أو مساعداً.

كما أن هناك تشابه وتقارب بين النظرة الإسلامية والغربية تجاه الإبداع على مستوى التعريف، إلا أن نقطة الخلاف تتمثل في كون التعريف الغربي للإبداع مبني على الرؤية النسبية أو العدمية، بينما التعريف الإسلامي للإبداع مبني على اعتبار القيم ووجودها، والتي تنطلق من أن لا إبداع بدون قيم. وأن التفكير الإبداعي ينقسم إلى إبداع إيجابي وآخر سلبي، فالإيجابي هو الذي يأتي بما ينتفع به الإنسان في الدنيا والآخرة، أما السلبي فذلك الذي يأتي بما يضر الإنسان كما تم توضيحه في الفصل الثاني. وأن هناك توافقاً بين النظرة الإسلامية والغربية للإبداع، فيما يتعلق بعوائق التفكير الإبداعي وإن اختلفت في الوصول إليها؛ وذلك من انطلاق النظرة الإسلامية من علوم الوحي، دون النظرة الغربية المكتفية بالوقائع الحسية. وأن هناك توافقاً وتقارباً بينهما، فيما يتعلق بأنماط التفكير ومهاراته؛ مادامت طرق التفكير طرقاً إنسانية كونية.

تقييم عام للكتاب:

1. التناسق الداخلي للأفكار والمادة: إذا نظرنا إلى التناسق الداخلي لموضوعات الكتاب، والمقاربات المطروحات لحل الإشكالية نجد أن هناك تناسقاً لا بأس به، بالذات فيما يتعلق بترتيب الأفكار والموضوعات. أما فيما يتعلق بالمقاربات، فإننا نجد الكاتبين جمعا مادة غريزة تتعلق بالتفكير الإبداعي وأنماطه، في كل من الدراسات الإسلامية والغربية الحديثة منها والتراثية.
2. لقد حاول الكاتبان تأكيد أصالة التفكير الإبداعي في الفكر الإسلامي، وذلك بتناول عدد كبير من الآيات القرآنية والسنة النبوية لأنماط التفكير، لإرشاد الإنسان إلى الطرق المناسبة والسبل الملائمة لتوظيف العقل البشري، في الكشف عن السنن والنواميس الكونية، وأشار الكاتبان إلى أن المسلمين في عصرهم الذهبي استرشدوا تلك الإشارات في دراساتهم العلمية والأكاديمية، مما جعلهم يبدعون في كل من المجال الطبيعي والاجتماعي.
3. ولم يخل الكتاب من الدعوة إلى الاستفادة من الآخر غير المسلم ودراساته العلمية، باعتبارها جهود بشرية ذات قواعد موضوعية، يمكن تمحيصها من التلوث الفكري الذي قد يؤثر في جوانب منها.
4. لقد ذكر الكاتبان في مستهل كلامهما في مقدمة الكتاب، أن الكتاب نتيجة تدريسهما المادة للطلبة في الجامعة لسنوات عديدة، مما يعني مباشرتهما لمادة الكتاب عملياً قبل كتابتها. وبالتالي من البديهي أن يأمل

القارئ لهذا الكلام، تناول الكتابين جوانب تطبيقية عملية لتنمية التفكير الإبداعي في كل من المستويين التعليمي والوظيفي في المجتمع المعاصر. لكننا إذا نظرنا فيما يتعلق بالجانب التطبيقي للتفكير الإبداعي في الكتاب، فإننا نجد قلة المادة المتعلقة بها، فعلى سبيل المثال؛ كي يختلف الكتاب عن غيره من الدراسات التي اكتفت بمعالجة الجانب النظري للإشكالية، كان من المتوقع أن يقدم الكاتبان للقارئ مقترحات تطبيقية لتطوير أساليب التفكير وتنمية مهارات الإبداع في الحقل الدراسي أو الأكاديمي؛ المدرسي منه والجامعي، أو المعاهد المهنية والوظيفية. ومن الجدير بالذكر هنا هو تناولهما مجالات وجوانب تطبيقية للتفكير الإبداعي في التاريخ الإسلامي، عن طريق الإشارة إلى دور علماء المسلمين الأوائل –لا المعاصرين، وإسهاماتهم في تطوير العلوم والمعارف الإنسانية، لكن هذا لا يغني عن حاجتنا إلى تطبيقات عملية حديثة.

5. ملاحظة عامة: وعموماً فإن هذا الكتاب يمثل جهداً مشكوراً، وإضافة نوعية للرصيد المعرفي، فهو يقربنا من موضوع جديد، ولكنه في الوقت ذاته يتناوله بشكل بسيط يساعد على الفهم. والسبب هو أن الكتاب في أصله كتاب تدريس وليس جهداً أكاديمياً معمقاً. ولقد نجح الكاتبان في خلق توازن جميل بين بساطة العرض وعمق الأفكار، ولعل محاولات جديدة منهما في المستقبل ستركز على الجانب العملي التطبيق لكي تظهر الفائدة.